مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠٠٧/٢٩

الأحد ٢٢ تموز

تذكار القديسة الحاملة الطيب

المعادلة الرسل مريم المجدلية

اللحن السابع

إنجيل السَحَر الثامن

الرسالة

(١ كورنثوس ١: ١٠-١٧)

يا إخوةُ أطلبُ إليكم باسمِ ربّنا يسوعَ المسيحِ أن تقولوا جميعُكم قولاً واحداً وأن لا يكونَ بينكم شقاقاتٌ بل تكونوا مكتمِلينَ بفكرٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ* فقد أخبرني عنكم يا إخوتي أهلُ خُلُوي أنَّ بينكم خصوماتٍ* أعني أنَّ كلَّ واحدٍ منكم يقول أنا لبولُسَ أو أنا لأبلُّوسَ أو أنا لصفا أو أنا للمسيح* ألعلَّ المسيحَ قد تجزَّأ. ألعلَّ بولسَ صُلبَ لأجلِكم أو باسمِ بولسَ اعتمدتم* أشكرُ اللهَ أني لم أعمِّد منكم أحداً سوى كرِسبُس وغايوس* لئلاَّ يقولَ أحدٌ إني عمَّدتُ باسمي* وعمَّدتُ أيضاً أهلَ بيتِ استفاناس. وما عدا ذلك فلا أعلمُ هل عمَّدتُ أحداً غيرَهم* لأنَّ المسيحَ لم يُرسلْني لأُعمِّدَ بل لأُبشِّرَ لا بحكمةِ كلامٍ لئلاَّ يُبطَلَ صليبُ المسيح.

العطلة والعيد

في زمن تشتد فيه مطالبة المسيحيين بعدم أسلمة «البلد»، في هذا الزمن الذي يعبّر فيه المسيحيون عن خوفهم على الوجود المسيحي في لبنان، لا بدّ للمراقب من أن يلاحظ بوضوح علامات ما يسمى بأزمة الهوية عند المسيحيين. تراهم يوماً يسألون عن بيع الأراضي لغير اللبنانيين وهم يقصدون العرب المسلمين، ثم تلاحظهم يتشدّدون في المطالبة بالتعطيل في هذا اليوم أو ذاك أو يسألون عن التوازن الطائفي في وظائف الدولة مدنيةً وعسكريةً، وسواها من مواضيع تطال في غالبها القشور لا الجوهر.

لسنا نشاء هنا البحث في التعددية، حسنات وسيئات، ولسنا نرغب بالدخول في متاهات العيش المشترك أو العيش الواحد أو مقولة اللبنان بجناحيه، ولكننا نسأل عن مكانة المسيح عند المسيحيين ومرتبة الإنجيل المعاش في حياتهم.

من هذا المنظار يصبح التساؤل لا بل المساءلة مشروعين. ولنبدأ بمقارنة ما نحن عليه اليوم مع أوضاع المسيحية الأولى ونبحث إن كانت ظواهر الوهن السياسي أو القومي هي من أسباب اندثار المسيحية وهلاكها أم أنها بغير تأثير على شهادتها. من حقنا أن نتسائل: هل أن التلاميذ الإثني عشر الذين انتُدبوا للبشارة طرحوا على أنفسهم مسألة العدد أو الوجود ليبشروا العالم؟ يقول بولس الرسول: «لما سُرّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يُعلن ابنه فيّ لأبشّر به بين الأمم، للوقت لم أستشر لحماً ودماً» (غلا ١: ١٥-١٦). لم يطرح التلاميذ على أنفسهم مسألة الهوية أو العدد ولكنهم اندفعوا إلى البشارة غير مهتمين باسم أو مركز أو هوية. ثم صارت لهم بالمسيح هوية لأنه «في أنطاكية دُعي التلاميذ مسيحيين أولاً» (أع ١١:٢٦). في أنطاكية أي في بلادنا وفي مشرقنا العربي بالذات ارتسمت هوية التلاميذ المسيحية لا بسبب من عصبية بل بفضل شهادة حيّة للمسيح المصلوب القائم من بين الأموات. ارتسمت هويتهم في حقبات الاضطهاد والاستشهاد، ولم يحصلوا على نعمة الانتماء بالاسم إلى يسوع لكونهم من عظماء هذا الدهر وأقويائه، بل لكونهم ضعفاء في المقاييس الدنيوية: «ولكن لنا هذا الكنزُ في أوانٍ خَزَفيَّةٍ ليكونَ فضلُ القوّةِ لله لا منَّا، مكتئبينَ في كلِّ شيءٍ لكن غيرَ مُتَضايقين، مُتحيِّرين

الإنـجيل

(متى ١٤: ١٤–٢٢)

في ذلك الزمان أبصرَ يسوعُ جمعاً كثيراً فتحنَّنَ عليهم وأبرأ مرضاهم* ولمَّا كان المساءُ دنا إليه تلاميذهُ وقالوا إنَّ المكانَ قَفْرٌ* والساعةُ قد فاتَت فاصرِفِ الجموعَ ليذهبوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً* فقال لهم يسوعُ لا حاجةَ لهم إلى الذهابِ أعطوهم أنتم ليأكلوا* فقالوا له ما عندنا ههنا إلاَّ خمسةُ أرغفةٍ وسمكتان* فقال لهم هلمَّ بها إليَّ إلى ههنا* وأمر بجلوسِ الجموع على العشب. ثمَّ أخذَ الخمسةَ الأرغفَةِ والسمكتينِ ونظرَ إلى السماءِ وباركَ وكسرَ وأعطى الأرغفةَ لتلاميذهِ والتلاميذُ للجموع* فأكلوا جميعُهم وشبعوا ورفعوا ما فَضُلَ من الكِسَرِ اثنتَيْ عشْرَةَ قُفَّةً مملوءةً* وكان الآكِلونَ خمسةَ آلافِ رجلٍ سوى النساءِ والصِبيان* وللوقتِ اضْطرَّ يسوعُ تلاميذَهُ أن يدخلوا السفينةَ ويسبقوهُ إلى العَبْرِ حتى يصرفَ الجموع.

لكن غيرَ يائسينَ، مُضطَهَدينَ لكن غيرَ متروكينَ، مطروحينَ لكن غيرَ هالِكينَ، حامِلينَ في الجسدِ كلَّ حينٍ إماتَةَ الرَّبِّ يسوعَ لكي تُظهَرَ حياةُ يسوعَ أيضاً في جسدِنا» (٢ كو ٤: ٧–١٠).

وحتى لا يستبقينا التاريخ في ماضٍ عَبَر، ولأن الشهادة للمسيح لا تتغيّر ولا تتأثر بما يدور من حولها، تسطع أمامنا صورةُ الأم تيريزا، تلك المرأة الناحلة الضعيفة التي غرفت من نعمة المسيح حتى صارت له أيقونةً حيَّةً في بلاد الهند التي لا مكان فيها مرموقاً للمسيحية ولا وجود يُذكر.

ولنعد إلى لبنان آخذين مثلاً موضوع تعطيل يوم الجمعة العظيم أو سواه من الأعياد المسيحية ونسأل كم من الغيارى المدافعين اليوم عن «الجمعة العظيمة» سنجدهم في الكنائس يوم العيد خاشعين مصلّين دون تأفف من طول الصلاة أو سماعهم يتعلّلون بعلل الخطايا ليبرّروا غيابهم وتقاعسهم عن المشاركة في الصلاة؟ سنسمع هذا يقول إنه يصلّي في نفسه وأمام ربه وذاك يتحفنا بأسباب تافهة يعلّل بها غيابه ويغلّفها بمسحة روحية أو لاهوتية لنكتشف بسرعة أن الناس لا يريدون العيد بل «التعطيل» ليرتاحوا مستمتعين بيوم لا عمل فيه، مدغدغين أضغاث أحلامهم بأن هذا «التعطيل» بالذات أكسبهم معركة الهوية والوجود.

والأمر نفسه مطروح على صعيد التوازن في وظائف الدولة، لا بل إنه مطروح بمرارة أعظم، لأننا غالباً ما نجد المسيحيين يحمّلون القيادات الكنسية تبعة هذا الخلل، فيما هم محجمون عن الانخراط في حقل الخدمة العامة، وظيفةً رسميةً وعملاً نقابياً، لأن هذا يتطلّب منهم تضحية وهم عنها محجمون لأسباب وأسباب، وكلّها شخصية ومادية، وبعضهم لا يعرفون سوى التنظير من بلاد الهجرة البعيدة.

أحياناً ينخرط بعض هؤلاء في حقل المجتمع المدني للخدمة الاجتماعية أو الثقافية أو ما شاكل لنجد إذا ما أمعنّا النظر أن معظمهم يركبون هذا المركب كوسيلة للتألّق الاجتماعي علّهم بذلك يدخلون الزعامة والسياسة من باب أسهل.

هذا لا يعني أن المسؤولية تقع على المسيحيين وحدهم. كما أن هذا لا يعفي معظم من هم في سدة القيادة من مسؤولية الإمعان في اعتماد المحسوبيات نهجاً وتغليب المصلحة الخاصة أزلاماً وأتباعاً ومحاسيب، على المصلحة العامة، سبيلاً للبقاء في أماكنهم.

كما أن هذا لا يعني أننا نطالب الدولة بإلغاء أعيادنا ومناسباتنا الدينية التي هي لنا محطات نتوقف فيها عن أعمالنا ونركن إلى ربنا مصلّين خاشعين. لو كان بالإمكان لكان خيارنا أن تكون الأعياد الدينية كلّها أيام توقف عن العمل لتتاح لنا، مسيحيين ومسلمين، فرصة كافية لنعود إلى الله فيقدّس حياتنا ويبارك أعمالنا وينمّي خيراتنا ويبعد عنا كل ضرر وخوف، زارعاً في قلوبنا المحبة والرجاء وفي أرضنا السلام.

ولكننا نفهم أن تقول الحكومة إن بلداً مثل لبنان يحقق نسبة نمو سلبي وقد تراكمت ديونه وهَجَرَتْه قواه العاملة، عليه أن يعوّض خسارته بالعمل أياماً إضافية. ونفهم أن الكنيسة لا تستطيع أن تُلزِم الناس «بالتعطيل» على حساب جوعهم والتعييد على حساب عوزهم فقط لتثبيت كلمتها (ومن خلالها وجوداً دنيوياً) في حين أن السفينة إن غرقت تغرق بالجميع.

أي وجود هذا وأية هوية وأي مثال تعطيه الكنيسة للعالم من حولها وللإخوة المسلمين؟ هل نكون أكثر مسيحية لو «عطّلنا» البلد أم نكون

تأمل

بعد أن أخذ الرب الخبزات كسّرها إلى أجزاء وأعطاها للجموع عن طريق التلاميذ مكرّماً إيّاهم بهذه الطريقة. ولم يفعل ذلك فقط من أجل تكريمهم بل لكي لا يظهروا فيما بعد عديمي الإيمان حتى لا ينسوا مثل هذا الحدث على مرّ الزمن كونهم صاروا شهوداً بأيديهم للمعجزة. لذلك يدع أولاً الجموع تجوع ثم يأتي التلاميذ ليسألوه وبعدها عن طريقهم يُجلس الجموع ويوزّع لهم أجزاء الخبز والسمك. لأنه كان يريد أن يؤكّد على اعتراف كل واحد وعلى أعماله. لذلك أخذ الأرغفة من التلاميذ حتى يكون لهم أدلّة كثيرة تذكّرهم فيما بعد بالعجيبة. لأنه بالرغم من كل ما جرى نسوا الحَدَث فكم بالأحرى سيكون إن لم يقم بكلّ هذه الإجراءات؟ يأمر الجموع أن يتكئوا على العشب لكي يعلّمهم أن يواجهوا الحالات الصعبة بصبر. لأنه كان يريد أن يغذي لا أجسادهم فقط بل وأنفسهم. من المكان الذي وُجدوا فيه، من الاكتفاء بالخبز

تلاميذ حقيقيين للمسيح لو كان فينا شيء من التواضع والبصيرة والحكمة والفهم فنصلّي دون أن «نعطّل» إن كان ذلك ممكناً لأن الخِدَم الإلهية غالباً ما تكون يوم الجمعة العظيم بعد انتهاء دوام العمل.

رجاؤنا أن نطرح عنا الخوف محرّكاً وحيداً لأفعالنا، لا بل لردّات أفعالنا، لأننا قوم يتقنون ردّات الفعل ولا يفعلون، ومن نسجد لآلامه ودفنه يوم الجمعة العظيم قال للتلاميذ قبل موته: «ثِقوا أنا قد غلبتُ العالمَ» (يو ١٦:٣٣)، وغلبته كانت بالمحبة التي لا حدود لها وبالتضحية حتى الصليب والموت، وبالقيامة التي بها داس الخطيئة وانتصر على الجحيم.

رجاؤنا ألاّ نستمد قوّتنا من ترهات هذا الدهر. رجاؤنا أن نعرف أن من اصطبغ بالمسيح لا قوة له إلا المسيح. لقد أثبتت التجارب التاريخية أن الأمبراطوريات الدينية، مسيحية وإسلامية، صارت في غياهب التاريخ كالهباء الذي تذرّيه الريح.

ما هكذا نثبت وجودنا، بل بحضور فيه من رقة الرب قوةٌ ومن دِعَتِهِ عَظَمَةٌ.

الناس تتطلّع إلينا مفتشة عن ينابيع ماء حيّ، عن كلام آخر يعطي حياة ولا ينفث سموماً، عن مواقف أخرى يقفها الأقوياء الذين بالمسيح يجرؤون أن يفصلوا كلمة الحق باستقامة لتكون لنا بالمسيح الحياة ولكي تكون لنا أوفر (يو ١٠:١٠).

شهود يهوه وبتولية مريم

«بما أنكِ كنز قيامتنا أيتها الكليَّة التسبيح، فانتشلي الواثقين بِكِ من عمق جبّ الزلاّت لأنكِ خلّصتِ الساقطين تحت طائلة الخطيئة لما ولدتِ الخلاص، يا مَنْ هي قبل الولادة عذراء، وفي الولادة عذراء، وبعد الولادة أيضاً عذراء» (والدية القيامة للحن السابع).

هذا النموذج من تراتيلنا يعكس الإيمان المحفوظ في الكنيسة منذ القرون الأولى في ما يتعلّق ببتولية مريم. فالقديس اغناطيوس الأنطاكي (+١٠٧) الذي عايش الرسل كتب إلى كنيسة أفسس: «ان رئيس هذا الدهر لم يدرك لا بتولية مريم ولا ولادتها ولا موت السيد. أسرار ثلاثة باهرة فعلها الله بصمت وهدوء» (١٩: ١). والقديس بطرس الإسكندري (+٣١١) كان أول من استعمل عبارة «الدائمة البتولية» إذ كتب: «ولد يسوع حسب الجسد من مريم، سيدتنا القديسة المعظّمة، والدة الإله الدائمة البتولية». والقديس أثناسيوس الإسكندري (ق٤) قال: «إنها عذراء في الحمل وبعد الولادة». والقديس يوحنا الذهبي الفم (ق ٤) وعظ قائلاً: «نحن نجهل أموراً كثيرة: نجهل كيف وُجد غير الموسوع في حشا البتول... وكيف ولدت العذراء وبقيت عذراء». والقديس غريغوريوس النيصصي قال: «ان حشا العذراء، الذي استُخدم لميلاد بلا دنس، مبارك، لأن الميلاد لم يبطل عذريتها كما ان العذرية لم تعق هذا الميلاد ولم تمنعه». أخيراً فإن المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣) قال: «ليكن مبسلاً كل مَن لا يعترف بأن كلمة الله ولد ولادتين: الولادة الأولى منذ الأزل من الآب ولا تُحصر في زمان أو في جسد، والثانية في الأيام الأخيرة إذ نزل من السماء وصار جسداً من القديسة المجيدة مريم والدة الإله الدائمة البتولية وولد منها» (مادة ٢).

ولادة الرب يسوع من عذراء وبقاء مريم عذراء بعد الولادة أمر طبيعي بالنسبة لإيماننا المسيحي، ولا يمكن إلا أن يكون هكذا. يسوع هو ابن الله الآب الأزلي، الله أبوه الأزلي ولا أب بشري له، لذا لا بد له من أن يولد من

والسمك، من توزيع الطعام بالتساوي على الجميع من خلال كل ذلك يعلّمهم على التواضع، على الإمساك، على المحبة، على إظهار الاهتمام نفسه للجميع على اعتبار كل شيء مشترك. «بعد أن كسر الرب الخبزات إلى أقسام أعطاها للتلاميذ والتلاميذ للجموع». كسر الخبزات الخمس فتكاثرت الأجزاء في أيدي التلاميذ. ولم يكتفِ بذلك العجب بل جعل يفضل عن الخبز كسرٌ لكي يظهر ان هذه الكسر ما هي إلاّ فضلات الخبزات الكثيرة حتى يتأكد الكلّ من المعجزة. لقد ترك الجموع تجوع حتى لا يعتقد أحد أن العمل كان خيالاً. جعل يفضل إثنا عشر قفة حتى يتناول يهوذا واحدة منها. كان يمكن له أن يزيل جوع اليهود لكن في هذه الحالة لن يكتشف التلاميذ قدراته على العمل. لقد اندهش اليهود من الحدث إلى حدّ انهم أرادوا أن يعلنوه ملكاً الشيء الذي لم يفعلوه في العجائب الأخرى.

القديس يوحنا الذهبي الفم

عذراء خارج ناموس الطبيعة، ولا بد من أن يحفظها مُصانة وبتولاً. بتوليتها هي صورة التجدد الذي سوف تصير عليه الخليقة بالمولود من العذراء.

في مقابل هذا، دأب شهود يهوه منذ نشأتهم، وعند لقائهم أي مؤمن، على تحطيم الصورة البهيّة للعذراء مريم في نفوس المؤمنين وأذهانهم. فهم ينفون بتوليتها ويدّعون ان ليسوع إخوة، كما يصوِّرون ولادة يسوع كأي ولادة أخرى بشريَّة متناسين انه «لما كانت مريمُ أمُّهُ مخطوبةً ليوسفَ قبلَ أن يجتمِعا وُجِدت حُبلى من الروحِ القدس» (متى ١: ١٨) ومتناسين جواب مريم للملاك منذ البشارة: «كيف يكونُ هذا وأنا لستُ أعرفُ رجُلاً؟» (لو ١: ٣٤). فالحبل بيسوع هو حبَل إلهي وليس عن طريق علاقة بشريَّة عادية، حتى ان مريم لم تتزوج يوسف. مشكلة شهود يهوه انهم لا يعترفون أصلاً بألوهة الرب يسوع، لذا فهم يحاولون تشويه صورته عبر تشويه صورة مريم ونفيهم لبتوليتها.

يستند شهود يهوه في إنكارهم بتولية مريم إلى تفسيرهم الخاص لآيتين في الكتاب المقدس: «لم يعرفها حتى ولَدت ابنها البكر» (متى ١: ٢٥)، و«أليسَ هذا ابنَ النجَّار، أليست أمُّه تُدعى مريمَ وإخوتُهُ يعقوبَ ويوسي وسمعانَ ويهوذا. أوَليسَتْ أخواتُهُ جميعُهُنَّ عندنا» (متى ١٣: ٥٥-٥٦).

بالنسبة للآية الأولى وبحسب النص اليوناني الأصلي للإنجيل، فإن عبارة «يعرفها» واردة في صيغة الماضي البسيط. وهذه الصيغة الإعرابية تُستعمل للإشارة إلى شيء حدث في الماضي ولغاية وقوع الحدَث، ولا يُعرف ماذا حصل بعده. إذاً، بحسب النص، فإن يوسف لم يعرف مريم قبل ولادة يسوع، ولا شيء يشير، لا سلباً ولا إيجاباً، إلى ما حصل بعد الولادة. أما كلمة «بكر» فإنها لغوياً تعني أول مولود حتى لو لم يعقبه آخرون كالإبن الوحيد. الأول هو البكر، والبكر هو الأول ولو كان وحيداً، ولا لزوم لولادة ثانٍ حتى نعرف ان الأول هو البكر. هل كان على موسى أن ينتظر المرأة حتى تلد الولد الثاني حتى يقدس البكر الأول ويقدّمه إلى الهيكل حسب وصية الرب: «قدّس لي كلَّ بكرٍ فاتحِ رَحم من بني إسرائيلَ مِنَ الناسِ ومن البهائم» (خر ١٣: ٢)؟ كيف نعرف ما إذا كان ليسوع إخوة بعد أربعين يوماً من ولادته، أي يوم تقديمه كبكرٍ للهيكل ليُقدّس للرب؟

أخيراً، ربما لم يقرأ شهود يهوه ما نطق به الأنبياء عن المسيح وعبره عن والدته: «ثمَّ أرجَعَني إلى طريقِ بابِ المَقْدِسِ الخارجيِّ المُتَّجِهِ للمشرقِ وهو مُغلَقٌ. فقالَ لي الرَّبُّ هذا البابُ يكونُ مُغلقاً لا يُفتَحُ ولا يدخُلُ منهُ إنسانٌ لأنَّ الرَّبَّ إلهَ إسرائيلَ دخلَ منه فيكونُ مُغلقاً» (حز ٤٤: ١-٢). مريم العذراء هي هذا الباب المقدَّس الذي عَبَرَهُ الرب الإله ليصير إنساناً ويخلِّص جنس البشر. هي العذراء التي قال عنها أشعياء النبي: «ها العذراءُ تحبَلُ وتَلِدُ ابناً وتدعو اسمَهُ عمَّانوئيلَ» (٧: ١٤). معجزة دوام بتولية مريم، إذاً، متصلة بقداسة الحمل وقداسة الميلاد الفائقة العقل وقداسة المولود: «فلذلك... القدُّوسُ المولودُ منكِ يُدعى ابنَ اللهِ» (لو ١: ٣٥). دوام بتولية العذراء جزء لا يتجزأ من حقيقة التجسُّد، ان المولود هو ابن الله.

في العدد المقبل سوف نتحدَّث، بنعمة الله، عن موضوع إخوة يسوع.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb